رؤى صورة الدم في الشعر الإسلامي والأموي

صورة الدم (الحب).

إعداد

مصطفى محمد حافظ الصغير

رؤى صورة الدّم في الشعر الإسلامي والأمويصورة الدّم (الحب).

إنّ ارتباط الحب بالموت، هو ارتباط السكون والحركة، الهدم والبناء، الميلاد والموت، فكل هذه الصراعات التي يواجهها الشّعراء العُشّاق هو صراع مع المحبوبة، تعذبه من أجل اللقاء بها وصدّها وبعدها عنه، وما يحدثه ذلك من سقم ومرض وهلاك، فالمحبوبة تُشكل تضادًا في حياة هؤلاء الشّعراء، يتمثل في الدّاء والدّواء، والسقم والشّفاء.

على أنّ الموت: ما هو إلا انعكاس طبيعي لحياتهم المليئة بالمعاناة والقهر والحرمان، بالإضافة إلى الحس المرهف الذي عاشه الشّعراء.

ولهذا الاتجاه بذرة في شعرنا القديم، وإن كانت قد اتصفت بالجمود والتقليد – وأعني الطلليات– حيث يبدأ الشّاعر بالوقوف على الأطلال، ويتحول الطلل بما فيه من بقايا آثار الراحلين إلى بؤرة تشع منها المشاعر، هي خليط من الحزن والفرح، من الحياة والموت ممتزجتين، هذا الامتزاج الدّائم بين لذة الحب وحرقة الموت عند هؤلاء الشّعراء أعطى للشعر عمقًا لم يعرفه الشِعر العربي إلا نادرًا.

Species of the image of blood in Islamic and Umayyad poetry the image of blood (love).

The connection of love with death, is the connection of stillness and movement, demolition and construction, birth and death. These poets, represented in disease and medicine, disease and healing.

However, death: It is only a natural reflection of their lives filled with suffering, oppression and deprivation, in addition
to the sensitive feeling experienced by the poets.

This trend is a seed in our ancient poetry, although it was characterized by stagnation and imitation - and I mean the talismans - where the poet begins to stand on the ruins, and the ruins, including the remains of the traces of the departed, turn into a focus from which feelings radiate, which is a mixture of sadness and joy, of life and death mixed together. The constant mixture between the pleasure of love and the burning of death for these poets gave poetry a depth that Arabic poetry has rarely known.

دم الحب :

ربط الشّعراء الحب بالموت، يقول القط: " فإنه – أي الحب– يقترن عندهم بالموت، فالحب والموت عندهم متلازمان في كثير من الأحيان، لا لأن الحب يُصيب المحب بالضنى القاتل فحسب بل لأنه على هذا النحو العذري قرين الفقد التام الذي لا يفترق كثيرًا عن الموت." (١)

على أن هذا الرّبط بين الحب والموت ليس بدعًا لدى شعراء الإسلام وبني أمية، فهو أصيل في الشّعر وخاصة ما يتصل بالمقدمة الطللية الجاهلية " المعبرة بدقة عن إحساس الشّاعر الجّاهلي بالتناقض الوجودي بين الحياة المتمثلة في الحب وبين الفناء المتمثل في غربته عن الحبيبة، وانصرام الدهر، واندثار الطلل، والتي تجسد في الوقت ذاته موقف الشّاعر من الكون، وتخوفه من المجهول، إذ أن ما يتمثل لديه من حياة في الحب يحيا على حافة القبر الذي سيكون المثوى الأخير لكل حيّ ." (٢)

على أن الباعث الذي أدى إلى اقتران الحب بالموت ، بحيث يصبح الأول مؤديًا إلى الثاني أمران مهمان، يترتب أحدهما على الآخر " فالحب قائم على غياب الموضوع المحبوب، والافتقاد الدائم ، فالمحب دائمًا يائس من محبه، لا يتحقق له وصاله، أو الارتواء منه، وهذا ثانيًا يؤدي به إلى أن يعيش حالة من الانفعال القوي، وبذل الكثير من القوى النفسية والروحية، في إحساسه بالموضوع المحبوب، وهو يظل كذلك إلى أن يستنفد تلك القوى فينتهي به الأمر إلى الموت . " (٣)

وهنا نسأل لماذا هذا الإصرار على هذا الحب المفضي إلى الموت ؟ بل أنه من المفارقة أن هؤلاء الشّعراء العشّاق رُغم الشكوى من آلام الحب وعدم القدرة على

---

(١) عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النّهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧ م، ص ٩٩.

(٢) عبد الجبار عباس، مرايا على الطريق، مطابع الجمهورية، بغداد، ١٩٧١ م، ص ٣٨.

(٣) نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر، منشورات مكتبة النّهضة، ط ٢، ١٩٦٥ م، ص ٣١٤.

تحمل أعبائه ، فإنهم يجدون اللذة في هذا العذاب، فهم يلحون في طلب المزيد من العذاب واللذة، يقول جميل بثينة : من البسيط. [١]

لا خَيْرَ فِي الْحُبِّ وَقْفًا لا تُحَرِّكُهُ عَوَارِضُ اليأْسِ أَوْ يَرْتَاحُهُ الطَّمَعُ

على أننا لا نجد تفسيرًا لهذا العذاب سوى رغبة الشّاعر في أن يحقق نوعًا من الاستمساك بالحياة، والتشبث بها، وهو يتشبث بهذا الحب إنه بهذا الحب يحقق لنفسه شعورًا حقيقًا بالوجود، وشعورًا باللذة الباطنة وهو يرى في هذا الحب، مبررًا لوجوده، أي أن هناك موضوعًا له وجود حقيقي في الحياة يرتبط به وجوده، ويستمد منه معنى هذا الوجود وهو بهذا الحب والشّعر يؤكد هذا المعنى ويرهن عليه وبالتالي فهو لا يبالي بم يؤول إليه مصيره. " [٢]

ومن ثمّ يمكن اعتبار موت/ الحب من دوال الدّم باعتباره سببًا رئيسًا في الموت، ويمكن تقسيمه عبر محورين الأول :

١- موت الهجر والفراق .

٢- موت الاغتراب .

أولًا : موت الهجر والفراق :

الحب غريزة وضعها الله في قلوب البشر من أجل التعارف والتقارب بين الناس، و من أجل الألفة والمودة " فهو دون ريب أكثر الدوافع في الشعر شيوعًا ،وقد تدفقت عبر القرون فيوضات من شعر الحب وكان لكل عصر تقاليده في التعبير عنه ، ولكل شاعر طابع مرتسم على تلك التقاليد ، سواء حين التزمها أو حين تخطاها إلى ابتداع أسلوب خاص به . [٣]

والدّليل على أهمية موضوع الحب في التّراث العربي نجد كبار الأدباء تناولوه إمّا في بعض مصنفاتهم أو في مصنفات وقفوها كلها على مسائل العشق والحب،

---

(١) ديوان جميل بثينة، ص ٤٨.

(٢) محمد بن حسن الزير، مواجهة الآلام والموت من أجل الحياة في الشعر الأموي ، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، مج ٢، ع ١، ١٩٨٩ م ، ص ٧٨.

(٣) إليزابيث درو : الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة، محمد إبراهيم الشوش، مكتبة منيمة، بيروت، ١٩٦٤ م، ص ٢٤٧.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، الحصري القيرواني (ت ٤٥٣ هـ) في كتابه(المصون في سر الهوى المكنون) وابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) في كتابه طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف) وأبو محمد السّراج (ت ٥٠٠هـ) في كتابه مصارع العشّاق، وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) في كتابه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) وداود الأنطاكي (ت ١٠٠٨هـ) في كتابه (تزيين الأسواق في أحبار العشّاق) .

على أننا نجد أن هذا الحب يتحول إلى سبب في مأساة الكثير من الشّعراء، بل في موتهم في كثير من الأحيان، وذلك بسبب صدود المرأة / الحبيبة والتي تتجلى في اللوحات التي وصف فيها هؤلاء الشّعراء العشّاق صنوف التّعذيب التي تمارسها الحبيبات إزائهم ومنها (الهجر والفراق).

ولعل في هجر المرأة / الحبيبة و اشتداد الحزن لدى الشعراء وتشعب بواعثه من الأسباب التي أدت إلى كسر خواطر النفس، بل إلى مصير الموت، فصوّر الشعراء شكواهم من زوايا عدة، في أوضاع مختلفة، يشدّها الضجر والنقمة، وازدادت آلامها تبعًا لقسوة الظروف، ودرجة التأثير في النفوس .

فهذه الصّلة بين المحب ومحبوبه إن لم يتحقق لها الدوام، وباءت بالهجر " فإن المحب يعتريه ما يعتريه، حتى تلح الرّغبة عليه فيكون هذا الإلحاح مصدرًا للجزع والعذاب لا يمكن أن يتبدد إلا بالفناء ولا راحة فيه إلا بنشدان الموت." [١]

يقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي: من الوافر. [٢]

أَلاَ يَـــا هِنْـــدُ قَـــدْ زَوَّدْتِ قَلْبِـــي ... جَـــوَى حُـــزْنٍ تَضَـــمَّنَهُ الضَّـــمِيرُ

إِذَا مَـــا غِبْـــتِ كَـــادَ إِلَيـــكِ قَلْبِـــي ... فَـــدَتْكِ الـــنَّفْسُ مِـــنْ شَـــوْقٍ يَطِيـــرُ

وَقَـــدْ أَقْرَحْـــتِ بِـــالهِجْرَانِ قَلْبِـــي ... وَهَجْـــرُكَ ، فَـــاعْلَمِي ، أَمْـــرٌ كَبِيـــرُ

فَـــدَيْتُكِ أَطْلِقِـــي حَبْلِـــي وَجُـــودِي ... فَـــــإِنَّ اللهَ ذُو عَفْـــــوٍ غَفُـــــورُ

---

(١) عبد الرحمن بدوي، الموت والعبقرية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ، ١٩٦٢ م ، ص ٢١.

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص ١٥٠.

يحاول عمر أن يصور حالته النّفسية وما قاساه في حياته من صدود وهجران من المحبوبة، فيعكس لنا انفعالًا نفسيًا بواسطة النداء (ألا يا هند) ليعبّر عن معاناته من لوعة الحب والفراق، هذه المعاناة التي امتزجت فيها قلة حيلته في الوصل من ناحية، والصدّ والهجر من ناحية أخرى، ليصل في البيت الأخير إلى ذروة الاستسلام (فديتك أطلقي حبلي) متوسلًا إياها أن تجود عليه بالوصل فالهجر حتمًا يقضي على أنفاسه .

ويقول عمر في موضعٍ آخر: من الوافر. [١]

أَرِقْـــــتُ وَآبَنِـــــي هَمِّـــــي لِنَـــأْيِ الـــدّارِ مِـــنْ نُعْـــمِ
أَمُـــوتُ لِهَجْرِهَـــا حَزَنًـــا وَيَحْلُـــو عِنْـــدَهَا صَـــرْمِي
فَبِـــئْسَ ثَـــوَابُ ذَاتِ الْـــوُدِّ تَجْزِيـــه ابْنَـــةُ الْعَـــمِّ
فَجِئْـــتُ فَقُلْـــتُ : صَـــبٌّ زَلّ مِـــنْ وَاشٍ أَخـــي إِثْـــمِ
وَقَـــدْ أَذْنَبْـــتُ ذَنْبًـــا فَاصْـــفَحِي بِـــاللهِ عَـــنْ ظُلْمِـــي
فَقَالَـــتْ : لاَ ، فَقُلْـــتُ : فَلِـــمْ أَرَقْـــتِ دَمِـــي بِـــلا جُـــرْمِ؟

نجد في هذه الأبيات رجلًا قد شفّه الوجد والفراق، وأثّر فيه الحب والصّد، مستعطفًا المحبوبة بأن تبتعد عن هذا الصرم، الذي أظهرته له عامدة في أسلوب قصصي، واضعًا نفسه موضع الخاضع المتذلل لها،(أموت لهجرها حزنًا، فجئت فقلت صبٌّ، فاصفحي بالله عن ظلمي، فقالت : لا) وعلى الرُغْمِ من ذلك فالمحبوبة لا تبالي بعمر وبما حلّ به من العذاب، فتتنكر له فلا تواصله ولا تهتم به، بل هي على يقين بأن هذا الصّد مآله الموت للمحبوب .

يقول الفرزدق : من الطويل.[٢]

وَلَجَّ بِكَ الْهِجْـرَانُ ، حَتّـى كَأَنّمـا تَرَى الْمَوْتَ فِي الْبَيْتِ الّـذِي كُنْـتَ

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق، بشير يموت، المطبعة الوطنية، بيروت، ط ١، ١٩٣٤ م، ص ٢٤٤.

(٢) ديوان الفرزدق، ص ٣٨٣.

لِجَاجَةُ صَرْمٍ لَيْسَ بِالْوَصْـلِ ، إِنّمـا أَخُو الْوَصْلِ مَنْ يَدْنُو وَمَـنْ يَتَلَطّـفُ

لقد اعترى قلب الفرزدق الهجر وأصابه الذّهول، فتغيرت حاله، فالقلب مجروح مكلوم (ولج بك الهجران، ترى الموت) هذا الهجر ولّد لدى الفرزدق الحزن والهم، بل وصل به إلى درجة الموت، فهو يحبها ما وسعه الحب ولا يطيق أن تهجره .

ويقول جرير: من البسيط .[١]

إِذْ أَنْتَ صَـادٍ بِنَبْـلِ الْجِـنّ مُقْتَتِـلُ وَالشِّرْبُ يُمنَعُ مِنْ صَـدْيَانَ مَهيـومِ

لَلْمَـوْتُ أَرْوَحُ مِمَـا تَفْعَلِـينَ بِنَـا وَمِـنْ مَوَاعِـدَ مِـنْ خُلْـفٍ وَتَـأْثِيمِ

يبدو كأس الفراق أشدّ مرارة من أية كأس أخرى لدى جرير، إذ لا أمل يرتجى في اللقاء، فوعدها ووفاؤها مخادعًا، وهذا ما جعله يتمنى الموت (للموت أروح مما تفعلين بنا) فكلمة (الموت) ذات دلالة معنوية تعبّر بواقعية كبيرة عمّا يعتري جرير لفراق المحبوبة .

يقول بن قيس الرقيات: من الوافر. [٢]

رُقَـيِّ بِعَمْـرِكُمْ لا تَهْجُرِينَـا وَمَنّيْنَـا الْمُنَـى ثُـمّ امْطُلِينَـا

عِـدِينَا فِـي غَـدٍ مَـا شِـئْتِ إِنّـا نُحِـبُّ وَلَـوْ مَطَلْـتِ الْوَاعِـدِينَا

فَإِمّـا تُنْجِـزِي عِـدَتِي وَإِمّـا نَعِـيشُ بِمَـا نُؤَمِّـلُ مِنْـكِ حِينَـا

تَقِـنّ اللهَ فِـيَّ رُقَـيِّ وَاخْشَـي عُقُوبَـةَ أَمْرِنَـا لا تَقْتُلِينَـا

يدرك ابن الرقيات هول وشدة مأساة الفراق، ففي الفراق بُعد، وفي البُعد لوعة وشوق، وفي اللوعة ألم وعذاب للمحبوب، لهذا وجد فيه ابن داود بشاعة حين قال: " أمّا الفراق فمستغن ببشاعة اسمه عن الإغراق في وصفه ." [٣]وللسبب نفسه أكد أنه

---

(١) ديوان جرير ، ص ٣٩٢.

(٢) ديوان قيس بن الرقيات ، ص ٢٠٨.

(٣) أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني، الزَهرة، تحقيق، إبراهيم السّامُرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط ٢، ١٩٨٥ م، ص ٧٠

" ما خُلق الفراق إلا لتعذيب العشّاق ." [١]لذا نجد ابن الرّقيات يتوسل إلى رقية أن توفيه بالوعد ولا تهجره أو أنه يعيش على أمل اللقاء، ففي هجرها قتل لنفسه .

يقول كُثَيِّر عزة : من الطويل. [٢]

أَبَائِنَـــةُ سُـــعْدَى ؟ نَعَـــمْ سَـــتَبِينُ كَمَا اَنبتّ مِنْ حَبَـلِ الْقَـرينِ قَـرينُ

أَإِنْ زُمَّ أَجْمَـــالُ وَفَـــارَقَ جِيـــرةُ وَصَاحَ غُرَابُ الْبَـينِ أَنْـتَ حَـزِينُ

كَأَنّكَ لَـمْ تَسْـمَعْ وَلَـمْ تَـرَ قَبْلَهـا تَفَـــرُّقَ أُلّـــافٍ لَهُـــنّ حَنَـــينُ

كَـــأَنّي وَقَـدْ نَكَـبّنَ بُرقَـةَ وَاسـطٍ وَخَلّفْـنَ أَحْـواضَ النُّجَيْـلِ طَعِـينُ

تُمثل هذه الأبيات الحوارية معاناة كُثَيّر وألمه من الفراق فنفسه تقطر قلقًا وحزنًا، فكثير كغيره من الشّعراء رأى في الغراب نذير شؤم ودليل تفرق وبُعد، وهنا يقيم حوارية بينه وبين نفسه ليعبّر من خلالها على شدة معاناته، قائلًا : أترى سعدى أزمعت الرحيل ؟ والإجابة نعم، ليظهر على الشّاعر مظهر الحزن في قوله: (أنت حزين؟) بل يرى الموت الأكيد جراء الهجر في قوله (وخلفن أحواض النجيل طعين) .

يقول نُصَيب بن رَبَاح : من الوافر. [٣]

كَـــأَنَّ القَلْـــبَ لَيلَـــةَ قيـــلَ يُغـــدى بِلَيلـــــى العامِرِيَّـــــةِ أَو يُـــــراحُ

قَطـــاةٌ عَزَّهـــا شَـــرَكٌ فَباتَـــت تُجاذِبُـــهُ وَقَـــد عَلِـــقَ الجَنـــاحُ

لهـــا فَرْخـــانِ قـــد تُرِكَـــا بِقَفْـــرٍ وَعِشّـــــهما تَصْـــفِقُه الرّيّـــــاحُ

إِذَا سَـــمِعَا هَبـــوبَ الـــرّيحِ هَبّـــا وَقَـــالا أُمّنَـــا، تَـــأْتِي الـــرُّواحُ

فَلَـــا بِاللّيـــلِ نَالـــتْ مَـــا تُرْجَـــى ولا فِي الصُّـــبحِ كـــان لهـــا بَـــرَاحُ

---

(١) السابق ص ٧٤.

(٢) ديوان كُثير عزة ، ص ١٧٠.

(٣) شعر نُصيب بن رباح ، جمع وتقديم، داود سلّوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٦ م، ص ٧٤ .

يصور نُصيب ألم الفراق في صورة حية تجسد شدة معاناته، فقد شعر بدنو ساعة الفراق لحظة الوداع، فأخذ قلبه بالخفقان، كقطاة حُبست في شرك وقضت ليلتها تحاول الخلاص منه، ولكن كيف الخلاص وقد علق الجناح بالشرك ؟ وكانت هذه القطاة قد تركت فرخين لها في العش فكلما سمعا هبوب الرياح ظناه صوت جناح أمهما، لكن أملهما خاب، فلا القطاة استطاعت النجاة،ولا هي عادت إلى فرخيها، فصراع القطاة مع الشرك،هو صراع الشّاعر مع نفسه تجاه محبوبته فالخاسر في هذه الجولة هي القطاة / الشاعر

يقول قيس بن ذُريح : من الوافر.[١]

لَقَـــدْ عَـــذّبْتَني يَـــا حُـــبَّ لُبْنَـــى فَقَـــعْ إِمَّـــا بِمَـــوْتٍ أَوْ حَيَـــاةِ

فَـــإِنَّ الْمَـــوْتَ أَرْوَحُ مِـــنْ حَيَـــاةٍ تَـــدُومُ عَلَـــى التّبَاعُـــدِ والشّـــتَاتِ

وَقَـــالَ الأَقْرَبُـــونَ: تَعَـــزَّ عَنْهَـــا فَقُلْـــتُ لَهُـــمْ: إِذَنْ حَانَـــتْ وَفَـــاتِي

يُعبر قيس عن نفس صادقة وحالة جادة من الوفاء للمحبوبة، وعدم مقابلة الصدّ بمثله، فقد لاقى شتى صنوف العذاب جراء هذا الصدّ، فهو يتودد إليها أن تعيد عليه حياته ويؤكد حبه لها حينما يخيرها بين الوصل أو الموت، بل يتمنى الموت في حالة الهجر (عذبتني يا حب لبنى، الموت أروح من حياة، إذن حانت وفاتي) فقد جعل الموت أيسر مما يجد من الهجر والصد، فقد اختاره ليكون سبيلًا إلى الخلاص من هذا العذاب .

وقال الحارث المخزومي: من الخفيف. [٢]

أَثْـــلَ جُـــوْدِي عَلَـــى الْمُتَـــيَّمِ أَثْـــلاَ لا تَزَيَـــدي فُـــؤَادهُ بِـــكِ خَبْلَـــا

اتّقِـــي اللهَ وَاقْبَلِـــي الْعُـــذْرَ مِنِّـــي وَتَجَافِي عَنْ بَعْـضِ مَـا كَـانَ زَلا

لاَ تَصُـــدِّي فَتَقْتُلِينـــي ظُلْمًـــا لَـــيْسَ قَتْـــلُ الْمُحِـــبِّ للحِـــبِّ حِلَـــا

---

(١) ديوان قيس بن ذُريح ، ص ٦٢

(٢)شعر الحارث بن خالد المخزومي ، تحقيق، يحيي الجبّوري، مطبعة النّعمان، النّجف الأشّرف، ط ١، ١٩٧٢ م، ص ٨٠.

لَمْ أَرَ حِّـبْ بِـأَنْ سَـخِطْتِ وَلَكِـنْ مَرْحَبًـا أَنْ رَضِـيتِ عَنِّـا وَأَهْلًـا

الأبيات تحمل صدقًا عاطفيًا وإحساسًا مرهفًا، صادرًا من نفس معذبة تجرعت مرارة الفراق والهجر(جودي على المتيم، فؤاده به خبلًا، اقبلي العذر، تجافي عن بعض ما كان، لا تصدى فتقتليني، مرحبًا إن رضيت) هذا الحرمان يؤجج عاطفة الحب في نفس الشّاعر فتلتهب جوانحه وتذيب كبده، فنراه يستعطف المحبوبة علها تَرِقُ لحاله وتُعيد له أيام الودّ (اتقي الله ، اقبلي العذر، لا تصدي).

ويقول قيس بن المُلوّح : من الطويل. [١]

مَتَى يَشْتَفِي مِنْكِ الْفُؤادُ الْمُعَذَّبُ وَسَهْمُ الْمَنَايَا مِنْ وِصَالِكِ أَقْرَبُ ؟

فَبُعْدٌ وَوَجْدٌ واشْتِياقٌ وَرَجْفَةٌ فَلا أَنْتِ تُدْنِيني وَلا أَنَا أَقْرَبُ

كَعُصْفورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلٍ يَزُمُّهَا تَذُوقُ حِيَاضَ الْمَوْتِ والْطِّفْلُ يَلْعَبُ

فَلا الطِّفْلُ ذو عَقْلٍ يَرِقُ لِمَا بِهَا وَلا الطَّيْرُ ذو رِيشٍ يَطِيرُ فيَذْهَبُ

وَلِي أَلْفُ وَجْهٍ قَدْ عَرَفْتُ طَرِيقَهُ وَلَكِن بِلا قَلْبٍ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ

تتزاحم مشاعر الشّوق والهجر لدى قيس، فالشّاعر وصل إلى درجة عظيمة من التمزق النفسي، وهذا التمزق يفضي به إلى الموت، نلحظ ذلك من خلال الصّور والألفاظ (الفؤاد معذّب، سهم المنايا، بعدٌ ووجدٌ، اشتياق ورهفة، تذوق حياض الموت، بلا قلب) مستخدمًا التصوير الخيالي (كعصفورة في كف طفل) ليكشف عن ذاته المعذبة، حيث شبه حاله وما فيه من ألم وعذاب بالعصفورة التي بين يدي طفل يلعب بها، وينتف ريشها، وهي تتألم، وتتجرع كأس الموت، والطفل لاهٍ لا يدري، مما جعل المتلقي يتعايش ويرق لحال الشاعر .

---

(١) ديوان قيس بن المُلوّح، تعليق، يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، لبنا، ط ١، ١٩٩٩ م، ص ٣٨.

موت الاغتراب :

لا شك أن الآمال الضّائعة، والنّفس الممزقة والمكابدة في العيش، جميعها هموم وهواجس يعانيها العشّاق، فهم لا يشكون منها فحسب بل يصل بهم الأمر إلى حد اليأس بل إلى حد الفناء والموت كمدًا ويعد الاغتراب أحد العوامل المؤثرة في حالة العاشق، والتي تصل به أيضًا إلى حد الموت "وقد استُخدم مفهوم الاغتراب بطرق مختلفة ومعاني عديدة حتى أصبح يعاني من الغموض الشديد." (١)

ويمكننا أن نلقى المفهوم الشّامل للغربة عند أبي حيان التوحيدي في قوله: " فأين أنت من غريب قد طالت غربته في وطنه وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟! وأين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان ولا طاقة به على الاستيطان؟ "(٢)

ويقول أيضًا في محاولة منه أن يعطينا صورة صادقة عن ملامح الغريب في الحياة " الغريب من لبسته خرقة، وأكلته سلقة، وهجعته خفقة والغريب من غربت شمس جماله، واغترب عن حبيبه وعذاله، وأغرب في أقواله وأفعاله، وغرّب في إدباره وإقباله، واستغرب في طمره وسرباله، يا هذا ! الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة ... الغريب من إن حضر كان غائبًا، وإن غاب كان حاضرًا، الغريب من إن رأيته لم تعرفه، وإن لم تره لم تستعرفه." (٣)

ولعل أقسى صور الغربة هي الغربة داخل الوطن بسبب الظلم والاضطهاد والخوف أو الفقر والحرمان، يقول الإمام علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : " فقد الأحبة غربة. " (٤)

---

(١) سميرة سلامي، الاغتراب في الشعر العباسي، القرن الرابع الهجري ، دار الينابيع، دمشق، ط ١، ٢٠٠٠ م ، ص ١٣.

(٢) حسن محمد حمّاد، الاغتراب عند أبي حيان التوحيدي ، دراسة فلسفية من خلال الفكر الوجودي ، مجلة فصول ، القاهرة ، العدد الثالث ، ١٩٩٥ م ، ص ٧٢.

(٣) حسن محمد حماد، الاغتراب عند أبي حيان التوحيدي، ص ٧٤.

(٤) الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، تحقيق، الشّيخ محمد عبده، دار البلاغة ، بيروت ط ١ ، ١٩٥٩ م ، ص ٦٧٥.

يمكن أن نقول : أن الحال التي آل إليها العشّاق من عذاب وتوحش وبُعد عن الأهل والأحبة، كل ذلك دفعهم للبحث عن فضاء يتسنى لهم من خلاله نسيان تلك الآلام، والتّماس الراحة ولو لوقت قصير، فأصبحت الأطلال عندهم ذوات معانٍ ودلالات لها علاقة بالمحبوبة، بعد أن صارت تلك الأطلال مسارح للوحوش والغزلان .

وترتبط المرأة بالأرض، "وللشّاعر موقف من أطلال حبيبته وبكاؤه على الدّيار التي هجرها والطّلل عنده قطعة من الحياة التي تهرم كلما مضى منها جزء لا يستطيع رده مهما حاول، فالبكاء على الأطلال إنما هو البكاء على الحياة نفسها، ويمثل نقطة الانطلاق في تفكيره ."[١]ورمزًا للتّعبير عن مكنوناته النّفسية من معاناة الحب أو فقدان الأمل والتطلع إلى الآثار والوقوف عليها يفتح مجالًا للتّرويح النّفسي والاطمئنان لذاته البائسة ."[٢] لهذا اعتبرنا الاغتراب النفسي والمكاني لدى الشعراء العشّاق معادلًا موضوعيًا للموت بالدّم .

يقول حسّان بن ثابت: من الوافر. [٣]

عَرَفْتُ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالْكَثِيبِ كَخَطِّ الْوَحْيِ فِي الْوَرَقِ الْقَشِيبِ

تَعَاوَرَهَا الرِّيَاحُ وَكُلُّ جَوْنٍ مِنَ الْوَسْمِيِّ مُنْهَمِرٍ سَكُوبِ

فَأَمْسَى رَسْمُهَا خَلَقًا وَأَمْسَتْ يَبَابًا بَعْدَ سَاكِنِهَا الْحَبِيبِ

إنّ هذه الدّيار التي كانت للألفة واللقاء، قد لعبت بها الأقدار، بفعل الرّياح الشّديدة المتناوبة عليها والأمطار، وبدا الطّلل كأنه الثّوب البالي، فتحولت من مكانٍ آمن، إلى مكان موحش، وفي قوله: (وأمست يبابًا بعد ساكنها) يوحي بطيب أيام الوصال مع زينب مما يدل على جمال هذه الأيام لما فيها من سعادة وهناء، هذا الاغتراب

---

(١) نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت، ط ١، ١٩٧٠ م، ص ٢٥٥ .

(٢) عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال ، مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق، مج ٤٣، ج ٢ ،١٩٦٨ م ،ص ٣٥٥.

(٣) ديوان حسّان بن ثابت ، ص ١٥٥.

الذي يمزق نفس الشاعر، جعل المتلقي يتعاطف مع الشّاعر ويشعر بحجم ألمه ومعاناته من تجربتين مؤلمتين وهما الفقد في الحب وألم الغربة .

وقال الأخطل : من الطويل. [١]

صَحا الْقَلْبُ عَنْ أَرْوى وَأَقْصَرَ وَعَادَ لَهُ مِنْ حُبّ أَرْوى أَخَابِلُهْ

أَجِدَّكَ مَا نَلْقَاكِ إِلاّ مَرِيضَةً تُداوِينَ قَلْبًا، مَا تَنَامُ بَلابِلُهْ

عَفَا وَاسِطٌ مِنْهَا فَألجامُ حَامِرٍ فَرَوْضُ الْقَطا صَحْراؤُهُ

وَقَدْ كَانَ مِنْهَا مَنْزِلًا نَسْتَلِذُهُ أُعَامِقُ بَرْقَاواتُهُ فُأجَاوِلُهْ [٣]

وَأَدّتْ إِلَيْنَا عَهْدَهَا أُمُّ مَعْمَرٍ فَقَدْ جَعَلَتْنَا كَالْخَلِيطِ نُزَايِلُهْ

دَعَتْهَا نَوّى عَنّا شَطونٌ وَلَيْتَهَا ثَوَتْ مَا ثَوى عِنْدَ الكُلابِ جَنَادِلُهْ [٤]

تبدو نفسية الأخطل حزينة، أفرزت شعرًا قاتمًا يشفّ عن نفس ممزقة، فالتّغير قد أصاب المكان وهو(الدّار) التي كانت تقطنها (المحبوبة) والذي تجسد في قوله: (عفا واسط منها) الذي ينشر إيحاءات الانطماس والتغيير، فالأبيات ازدحمت بالأماكن المقفرة (ألجام، حامر، روض القطا، برقاوات، الأجاول، الكُلاب) مما دلّ على ولع الشّاعر بأماكن المحبوبة، وزاد من الصّراع النّفسي والألم لدى الشّاعر، والمكان نفسه قد تشكل بهيئات جميلة / قبيحة تبعًا للرؤى الشاعر، فلما كانت الحبيبة ساكنة فيه كان مزدهرًا(نستلذه) ولما جفته الحبيبة أصبح قبيحًا(عفا،كالخليط نزايله).

<u>الاغتراب النّفسي :</u>

" كثيرًا ما يقع الشّعراء في صدمة نفسية نتيجة لتحولهم من مكان إلى آخر، أو من طبيعة اجتماعية إلى طبيعة اجتماعية أخرى، الأمر الذي يخلق في نفوسهم كثيرًا

---

(١)ديوان الأخطل ، ص ٢٣٨.

(٢) ألجام ، حامر ، روض القطا: (أسماء أماكن) ، الخمائل: مفرد خميلة ، وهي رمل فيه شجر.

(٣) أعامق : اسم لوادٍ ، البرقاوات : مفردها برقاء ، وهي موضع تكثر فيه الحجارة والرمال والطين، الأجاول : الساحات .

(٤) الشطون: البعيدة ، الكُلاب : اسم الجبل ، الجنادل : مفردها الجندل وهي الصخرة الكبيرة .

من الضّيق والإحساس بالتّعاسة، وهذا ينعكس نفسيًا على شعرهم، ويجعلهم مندفعين وراء مشاعرهم النّفسية تجاه ما حل بهم مؤخرًا، وذلك كالانتقال من مكان لآخر، أو غياب أحد المقربين محبوبًا كان، أم أخًا، أم أبًا فإن هذه كلها تؤدي بالشّاعر إلى اغتراب نفسي يقوده إلى الإفصاح عنه ضمن مكنوناته الشعرية . " [١]

يقول تميم بن مقبل : من الطويل. [٢]

هَلِ الْقَلْبُ عَنْ دَهْمَاءَ سَالٍ فَمُسْمِحُ وَتَارِكُهُ مِنْهَا الْخَيَالُ الْمُبَرِّحُ

لَقَدْ طَالَ مَا أَخْفَيْتُ حُبِّكِ فِي الْحَشَا وَفِي الْقَلْبِ، حَتَّى كَادَ بِالْقَلْبِ

فَرُدِّي فُؤَادِي ، أَوْ أَثِيبِي ثَوَابَهُ فَقَدْ يَمْلِكُ الْمَرْءُ الكَرِيمُ فَيُسْجِحُ

ويقول في موضعٍ آخر: من البسيط. [٣]

أَنَاظِرُ الْوَصْلُ أَمْ غَادٍ فَمَصْرُومُ أَمْ كُلٌّ دَيْنِكَ مِنْ دَهْمَاءِ مَغْرُومُ

هَلْ عَاشِقُ نَالَ مِنْ دَهْمَاءَ حَاجَتَهُ فِي الْجَاهِلِيّةِ قَبْلَ الدِّينِ مَرْحُومُ

نلمس الحسرة والألم الذي يكابده ابن مقبل من هجر وفراق وصدّ المحبوبة، فقد تذوقت نفسه اليأس جرعًا واصطلت بنار الحرمان، فظهر على تلك النّفس المحرومة مظاهر الاغتراب،(هل القلب سالٍ، كاد بالقلب يجرح، فردي فؤادي، أناظر الوصل، هل عاشق نال من دهماء) فهذا الحرمان يودي بالشّاعر إلى عدم القدرة على تحمل مآسي الهجر وآلامه وقسوته، ولعلّه في تكرار تساؤله (هل القلب عن دهماء، هل عاشق نال) قد فضح نفسه وأظهر اغترابه وتوتره النفسي وقلقه .

وقال محمد بن عبد الله بن نُمَيْر الثّقفي [١] : من الطويل. [٢]

([١]) إحسان عبّاس ، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت،١٩٩٨ م، ص ١١٧.

([٢]) ديوان تميم بن مقبل، تحقيق، عزة حسن، دار الشّرق العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٥ م، ص ٤٠.

([٣]) ديوان بن مقبل ، ص ١٩٥.

لَقَــدْ لَبِــثَ الْقَلْــبُ الْبَعِيــدُ ذُهولُــه مِنَ الْبَيْنِ قَبْــلَ الْبَــيْنِ حِينًــا يُــرَوّعُ
وَإِنْ يَكُ أَمْسَى الْيَــوم فــي الْجِسْــمِ سَرِيعًا جَواهُ فَهُو فِي الْــنَفْسِ أَسْــرَعُ
تَمَسَّــكْ بِحَبْــلِ الْــودّ لا تَقْطَعَنــهُ وَشَــرٌّ حِبَــالِ الْــودِّ مَــا يَتَقطَــعُ

وقال في موضع آخر: من الطويل.(٣)

وَكُنّــا ، وَلَكــنّ اللّيَــالِي دُولَــةٌ كِلَانَا قَرِيرُ الْعَــيْنِ، بِــالْعَيْشِ نَــاعِمُ
فَتُبْــدِي صُــدودًا ظَــاهِرًا وَخِيَانَــةٌ وَفِــي السِّــرِ وُدٌ بَيْنَنــا وَتَكَــتُمُ
وَيَعْصِمُنَا مِــنْ كُــلّ سَــوءٍ وَرِيبَــةٍ وَفَاحِشَــةٍ – والحمــدُ للهِ – عَاصِــمُ

الشّاعر ممزق النّفس، فعلى قربه من المحبوبة جسديًا لكنه بعيد روحيًا، وهنا تبدو ملامح الاغتراب النفسي عند الشّاعر، فشدة الحزن وألم الجوى والبُعد كلها تجعل الشّاعر يمرّ بحالة من القنوط النفسي، واصفًا ذلك في شعره(القلب البعيد ذهوله، حينًا يروعُ، شرّ حبال الود ما يتقطع، الليالي دولة، تبدي صدودًا، ظاهرًا وخيانة)، فالألفاظ تحمل صدقًا عاطفيًا وإحساسًا مرهفًا، وصورًا صادرة من نفس معذبة تجرعت مرارة البُعد والفراق حتى كادت تودي بحياته .

يقول قَيس بن المُلوّح : من الطويل.(٤)

---

(١) شاعر أموي ، غزلي كان يشبب بزينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج بن يوسف، فلمّا وليّ الحجاج الحجاز هرب إلى عبد الملك بن مروان فاستجار به (انظر : مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج ٢٢ ، ص ٣٣٥.

(٢) محمد بن مكرم المعروف (بابن منظور)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق، روحية النّحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، سوريا، ط ١، ١٩٨٤ م، ج٢٢، ص ٣٣٧.

(٣) محمد بن مكرم المعروف(بابن منظور)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق، روحية النّحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، سوريا، ط ١، ١٩٨٤ م، ج٢٢، ص ٣٣٩.

(٤) ديوان قيس بن المُلوح ، ص ٣٤.

لَقَــد هَــمَّ قَــيسٌ أَن يَــزُجَّ بِنَفسِــهِ ... وَيَرمـــي بِهـــا مِـــن ذَروَةِ الجَبَـــلِ
فَلا غَروَ أَنَّ الحُــبَّ لِلمَــرءِ قاتِــلٌ ... يُقَلِّبُهُ مـــا شـــاءَ جَنبـــاً إِلـــى جَنـــبِ
أَنـــاخَ هَـــوى لَيلـــى بِـــهِ فَأَذابَـــهُ ... وَمَن ذا يُطيقُ الصَــبرَ عَــن مَحمَــلِ
فَيَسقيهِ كَــأسَ المَــوتِ قَبــلَ أَوانِــهِ ... وَيُورِدَهُ قَبلَ المَمــاتِ إِلــى التُــربِ

وقال في موضع آخر: من الطويل. (١)

يا لَيلَ زَندُ البَينِ يَقدَحُ فــي صَــدري ... وَنارُ الأَسى تَرمي فُــؤادِيَ بِــالجَمرِ
فَوَاللَهِ ما أَنساكِ مــا هَبَّــتِ الصَــبا ... وَما ناحَــتِ الأَطيــارُ فــي وَضَــحِ

وقال في موضع آخر: من الطويل. (٢)

وَلـــي كَبِــدٌ حَــرّا وَقَلْــبٌ مُعَــذَّبٌ ... ودَمْعٌ حَثِيثٌ في الهَوى غَيْــرُ جامِــدِ
فَيَــا أَسَــفا حَتّــامَ قَلْبِــي مُعَــذَّبٌ ... إلى اللّه أَشْكُو طُولَ هــذِي الشّــدائِدِ

إن ذات قيس المفجوعة في الابتعاد عن ليلى واغترابه عنها، وانصرام حبل المودة بينهما، حدا به إلى أن يسكنه هذا الهاجس في كل ديوانه الشعري (الحب للمرء قاتل، فأذابه، يسقيه كأس الموت، يقدح في صدري، نار الأسى، ما أنساك، قلب معذب، دمع حثيث، إلى الله أشكو) فهذا الحرمان يؤجج عاطفة الحب في نفس الشّاعر، فتلهب جوانحه، وتذيب كبده، ومن رحم الحرمان يولد الاغتراب والضياع، لتظهر علامات الموت تتراءى لقيس بعد اليأس الذي ضيق عليه أنفاسه (لقد همّ قيس أن يزج بنفسه).

(١) ديوان قيس بن الملوح ، ص ٣٦.
(٢) ديوان قيس بن الملوح ، ص ٥٣.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني، الزَهرة، تحقيق، إبراهيم السّامُرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط ٢، ١٩٨٥ م.
- إحسان عبّاس ، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت،١٩٩٨ م.
- إليزابيث درو : الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة، محمد إبراهيم الشوش، مكتبة منيمة، بيروت، ١٩٦٤ م، ص ٢٤٧.
- الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، تحقيق، الشّيخ محمد عبده، دار البلاغة ، بيروت ط ١ ، ١٩٥٩ م.
- حسن محمد حمّاد، الاغتراب عند أبي حيان التوحيدي ، دراسة فلسفية من خلال الفكر الوجودي ، مجلة فصول ، القاهرة ، العدد الثالث ، ١٩٩٥ م .
- حمد بن حسن الزير، مواجهة الآلام والموت من أجل الحياة في الشعر الأموي ، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، مج ٢، ع ١، ١٩٨٩ م.
- ديوان الأخطل، شرح، مهدي محمد ناصر الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٩٤م.
- ديوان تميم بن مقبل، تحقيق، عزة حسن، دار الشّرق العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٥ م.
- ديوان جرير، تحقيق، نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر، ط ٣.
- ديوان جميل بُثينة(شعر الحب العذّري)، تحقيق، حسين نصّار، دار مصر للطّباعة، مصر، ١٩٧ م.
- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق، عزيزة فوّال بابتي، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م.
- ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق، بشير يموت، المطبعة الوطنية، بيروت، ط ١، ١٩٣٤ م،ديوان الفرزدق، شرح، على فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٧ م.

- ديوان قيس بن المُلوّح، تعليق، يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، لبنا، ط ١، ١٩٩٩ م.
- ديوان قيس بن المُلوّح، تعليق، يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، لبنا، ط ١، ١٩٩٩م.
- ديوان قيس بن ذُريح، شرح، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان،ط ٢ م.
- ديوان كُثَيِّر عَزَّة، جمع وتقديم، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٧١م.
- سميرة سلامي، الاغتراب في الشعر العباسي، القرن الرابع الهجري ، دار الينابيع، دمشق، ط ١، ٢٠٠٠ م.
- شعر الحارث بن خالد المخزومي ، تحقيق، يحيي الجّبُّوري، مطبعة النّعمان، النّجف الأشّرف، ط ١، ١٩٧٢ م.
- شعر نُصيب بن رباح ، جمع وتقديم، داود سلّوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٦ م.
- عبد الجبار عباس، مرايا على الطريق، مطابع الجمهورية، بغداد، ١٩٧١ م.
- عبد الرحمن بدوي، الموت والعبقرية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ، ١٩٦٢ م.
- عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النّهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧ م.
- عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال ، مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق، مج ٤٣، ج ٢ ،١٩٦٨ م.
- محمد بن مكرم المعروف (بابن منظور)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق، روحية النّحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، سوريا، ط ١، ١٩٨٤ م، ج٢.
- نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر، منشورات مكتبة النّهضة، ط ٢، ١٩٦٥ م.
- نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت، ط ١، ١٩٧٠ م.